بلاغة الإيروسية

ترجمة :**حسن الطالب**

كلية الآداب ــ أكادير

الإيروسية، أساسا، لغة ونظام من العلامات ومنظومة من الرموز.

والإيروسية ــ شأنه شأن العشق والمعجم الجنسي برمته ــ لفظة ذات معنى مزدوج، عام وخاص. ففي المعجم يعني الإيروتيك 1 :" ما هو مرتبط بالعشق " 2 : " ما هو مرتبط بالجنس والعشق الشهواني ". والمعنى الثاني هو أكثر المعاني تداولا، كما أنه المعنى الذي أفردناه للمصطلح في كتابنا " **معجم الإيروسية**" [...] وهناك تمييز آخر يقابل **الإيروسية** (بحصر المعنى) **بالبورنوغرافيا** ليرى في **الإيروسية** نوعا من **البورنوغرافيا** المبررة من خلال مقاصد جمالية وأدبية. وهذا المفهوم ذاتي وماكر في إمكانه أن يشرط **البورنوغرافيا** بحدود ثقافية واعتباطية : فقد اهتم كل من **فلوبير** و**بودلير** بـــ " **البورنوغرافيا**". والواقع أن الحد الحقيقي، الوظيفي والموضوعي، هو ذاك الذي يميز **الجنسانية** *(sexualité)* عن **الإيرسية** بنوعيها الشهواني والروحي.

غاية **الجنسانية** هي تناسل النوع (البشري) أما غاية **الإيروسية** فهي اللذة التي لا تعدو أن تكون أداة وآلية تضعها الطبيعة في خدمة **الجنسانية**. كما أن لطبيعة **اللذة الجنسية** نكهة خاصة تماما بالقياس إلى كل الملذات الأخرى.

والحقيقة أن وظيفة اللذة تكمن في كبح جماح الميول وتعطيل **الفعل** (l'acte) اللذين تستثيرهما الحاجة بمجرد إشباعها. وهكذا عندما نأكل ونتنفس ونتبول ونروض عضلاتنا ...الخ " تكافئ " الطبيعة نشاطنا مثلما يكافئ المروض تلميذه. وتظل هذه المكافأة لصيقة بالفعل وتحقيق وظيفته . وبالمقابل فإن **لذة الجماع** تمنح نشاطا يكون الهدف منه (النسل والإنجاب) مؤجلا ولا علاقة له بسبب ذلك ــ في الحالة الطبيعية (عند

الحيوانات وعند كثير من الحيوانات البدائية بصفة خاصة) ـــ بالميول والفعل الموجهين لتحقيقها (اللذة). كما أن على اللذة أن تكون جامحة وعنيفة وحادة لكي تشكل في ذاتها غاية مستقلة عن **وظيفتها الطبيعية.** من تم استقلالية **الإيروسية** التي يكمن موضوعها في البحث عن **اللذة الجنسية** في مقابل **الجنسانية** التي تتمثل وظيفتها في النسل و الإنجاب.

وإلى هذا السبب يعود عدم التطابق التقليدي (الصريح أو الضمني) بين **الزواج** وبين **الإيروسية** الحسي أو الروحي. فآداب العشق ترى استحالة تحقق الحب في أحضان الزواج بل إنها تذهب إلى حد إعلان أن نهاية **الحب بين عشيقين تنطفئ في اليوم الذي يقترنان فيه.** كما نجد في **الفولكلور الإيروسي** ـــــ دون الحديث هنا عن تقليد مسيحي معين أخلاقيا كان أم بورجوازيا ـــــ أن اللذة لا تدرك بتاتا إلا خارج أحضان الزواج. ويظهر الممثلون في **الكوميديا الإيروسية** دائما في صورة زناة يسعون وراء ملذات لا يلتمسونها سوى خارج فراش الزوجية.

إن استعادة القداسة الزواجية للحب بمظهره المزدوج (الشهواني والروحي) هو ظاهرة ثقافية حديثة ومن صنيع المهتمين بالجنس ومستشاري الزواج [الذين يقدمون النصائح ويرشدون في مجال العلاقات الزوجية]. وإذا كانت **الكنيسة وكراسي الإعتراف [بالخطايا والآثام من منظور المسيحية]** في الماضي قد أبدت نوعا من التساهل تجاه بعض الممارسات فإنما كان ذلك من أجل تشجيع البحث عن اللذة أكثر مما كان من أجل نجدة سلطة تناسلية عاجزة.

هكذا وعلى هامش الخطاب الهائل حول عملية **الخلق والمعرفة والسلطة** التي انبثقت صورتها مباشرة من الجنسانية الخلاقة (sexualité créatrice) أسس **الأدب الإيروسي** خطابا آخر ممثلا في لغة الرغبة واللذة و هو خطاب قديم وغني. و بلغ غناه إلى حد حظره واستبعاده وهو يتوارى في الوقت الذي يظهر فيه تحت ألف ستار شفاف.

غير أن الأمر يتعلق دائما بالصوت نفسه ـــــ صوت الآلهة والملوك والآباء ـــــ، ذلك الصوت الذي يشهر القوة ويرفع شعار السلطة **والهيمنة الذكورية.** ناهيك أن هذه اللغة ذات أصول ذكورية و لا نصيب للمرأة فيها ، على الأقل إلى فترة حديثة جدا وإلى اليوم.

كما أن دراسة للأشكال الرمزية والإستعارية للجنسانية سوف تكون ناقصة دون فحص لمعجمها الخاص وللكلمات والصورالتي تعبر عن نفسها في الأدب الإيروتيكي.

ويعرض كتابي الأخير" **معجم الإيروتسية** " (منشورات Payot ، 1978) إلى هذا الغنى المفرط : فهناك 1500 مفردة للدلالة على " **الجماع** " و600 مفردة للدلالة على " **القضيب** " والعدد نفسه بالنسبة لـــ" **المهبل**" وهكذا دواليك لباقي المفردات الأخرى. إنه شيء يعز عن الوصف.

وسوف نوفر على القارئ جرد هذا المعجم، لكن ينبغي إعطاؤه فكرة عن النظام المعجمي المولد لهذا السيل من الاستعارات المدهشة جدا إلى حد أنها في غاية من البساطة البنيوية ؛ ومفتاحها الوحيد في ذلك هو **الصورة** التي تجعل من **النشاط الجنسي** رمز كل نشاط كيفما كان نوعه. تلك الصورة التي تنبعث في جميع أشكال الفعل وبالتالي،عمليا، في جميع الكلمات الخاصة بالمعجم الإيروتيكي. إذ لا يخلو فعل متعد، وبالخصوص فعل لازم، ولا اسم فاعل ولا جامد أو متحرك من صورة جنسية كائنة بالقوة تتأهب للتحقق والتجسد في طفرة عين.

فالكل سمع عن حكاية المُدرسة التي كانت بصدد امتحان تلامذتها في اللغة : " على ماذا تحيلك هذه الكلمة ؟ فرد **طوطو** بثبات **" إلى الجنس، آنستي. "** وأمـــام اســـتغرابها عقب قائلا : **" آه ! إنه سؤال بسيط، فأنا لا أفكر سوى في ذلك " .**

وما دمنا قد بدأنا بداية جيدة فكل منا كذلك على علم بتلك العادة التي تتمثل في ضرب أمثال بالصدفة من قبيل : A bon chat Bon rat.

ألخ... l'habit ne fait pas le moine ; tel qui rit vendredi , dimanche pleurera ;

وكل مرة نضيف إليها : « au milieu du lit » ; Pierre qui roule n'amasse pas mousse , au milieu du lit ; Petite pluie abat grand vent ,au milieu du lit , etc , etc.

طيب، لكن لست ملزما بالضحك. **فالمسألة لا تكمن ههنا. من جهة أخرى كن مطمئنا وسنكفيك مؤونة سرد النوادر المارسية (نسبة إلى مدينة مارساي الفرنسية) والكورسيكية واليهودية والإسكتلندية،** وكذلك أغاني **االفرسان والبحارة ورجال القضاء القدماء والقناصة وجنود المدفعية و الكهنة ناهيك عن الأحجيات و الألغاز**

والثوريات ومنظومات الهجاء والسخرية و الإبداليات (استبدال اول أو آخر الكلمات من أجل السخرية أو الدعابة) و معظمها مخل بالحياء. لكن قد يقال إن الأمر يتعلق هنا بـــ**دعابات** تحكى في **الفضاءات المدرسية والحراسة العسكرية والمقاهي التجارية والتجمعات الذكورية المكبوتة** فضلا عن أنها ذات مستوى ذهني متواضع عموما. وإليكم ما كان سوف يحدث في الأكاديمية الفرنسية تبعا ليوميات **فيكتور هيكو** بتاريخ 31 نوفمبر 1846. " يومها أنشد م. أنسولو (M. Ancelot) هذه الرباعية :

لهوت لا أعرف أين
على بليار غريب
تظل الكرات أمام الباب
أما الذيل فيلج الثقب (1)

يتعلق الأمر، في الواقع، بتقليد شعبي تغذيه الكدية (Farce). في مسارح الدعابة والهزل أو دعابات **كوتيي كاركيل** *(Gautier – Garguille) وقد أفاض العلماء والمثقفون في إشهارها وإذاعتها حينئذ.

بيد أن هذا المظهر الثقافي والسوسيولوجي للإشكالية لا يهمنا للتو، اللهم إذا كان شاهدا على **كونية** الموضوع **وعموميته وتواتره** ؛ إنه حصيلة **حالة لسانية** متفردة تكمن في أن قسما كبيرا من كلمات اللغة بل و معظمها ـــــ دون شك ـــــ يشتمل بالقوة على صورة جنسية يكفي أي سياق مهما كان بسيطا لتجسيدها وإخراجها من الكمون إلى الفعل.

ويعتبر **العشق الجسدي** (l'amour physique) في صورته الأعم علاقة: فأن تكون للرجل **علاقات** مع امرأة يعني أن الأمر يتعلق بعلاقات جنسية في صورة **متعدية** (transitive)أو **محلية** (locative) أو **تجميعية**(associative) . والحال أن هذا هو ما يحدد **الفعل** (verbe) كرابطة وأداة علامة على العلاقة القائمة بين **الذات والمحمول.**

إن العلاقات المتعدية التي تعبر عن **عمل ذات فاعل مذكر** في **موضوع ــ جامد مؤنث** هي أغنى العلاقات ضمن هذا النسق وهو يتكون من نوعين أساسين : علاقات تقليدية وعلاقات عسكرية.

فالعلاقة المحلية تضفي طابعا إستعاريا بالخصوص على امرأة تمتطي ظهر رجل لاستثارة عشيقها على اللذة. أما العلاقات التجميعية فتنعقد بين امرأة وثلة من الرجال الذين يوجهونها ويتحكمون فيها: طبيب، أستاذ، محام، كاهن ...ألخ وعموما كذلك بين مضيف ومضيفته. ويمكن للعلاقة أن تكون ثقافية أيضا باعتبار أن العشق عبادة كاهنته المرأة.

وفي نهاية المطاف فالعلاقة **لعبة** بالنظر إلى أن هدفها الأساس هو **اللذة** لا **الإنجاب** وهو موضوع يكاد يكون مغيبا من الأدب الإيروتيكي. كما ترتبط بهذه العلاقات العملية التي جردناها للتو (مهن، الحرب، كوكبة فرسان، علاقات اجتماعية) كثيرمن الألعاب : ألعاب آلية، العاب عسكرية (مبارزات فروسية) ألعاب مجتمعية (الرقص، لعبة الورق). ونحصل في الأخير على النظام التالي :

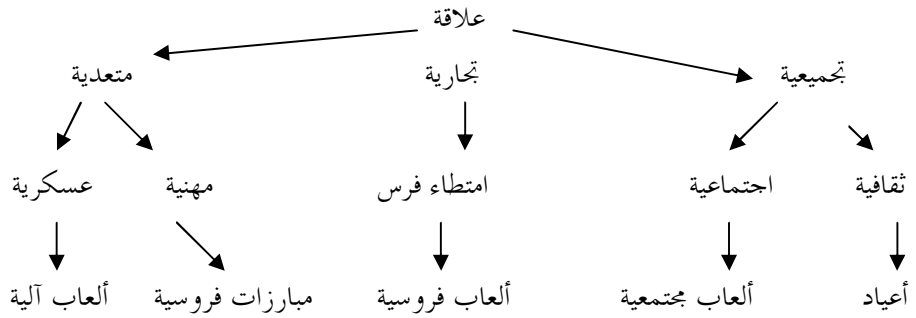

وترتبط الأسماء الإستعارية للقضيب و المهبل ارتباطا وثيقا بهذا النظام : فالقضيب أداة يدوية (العصا، الكم، الوتد، المخباط، الفأس ...الخ) وأداة موسيقية (المزمار، الناي، الشبابة...ألخ) وتجويف طبيعي (فتحة، فجوة، صدع، ثقب، حفرة...الخ) و حجرة (كوخ، مكتب، معقل، قلعة معبد، مزار...الخ).

وللتذكير فإن الأمر يتعلق ببنيات تشمل أكثر من 6000 كلمة يمكنها أن تمتد إلى ما لا نهاية. ويجد القارئ وصفا وجردا شموليا لهذه المنظومة في مقدمة كتابي " **معجم الإيروسية** ".

إن هذه الآلية الرائعة في توليد الإستعارات التي لا حصر لها لتظهر، بطريقة فريدة، اشتغال الفكر القياسي (pensée analogique)، كما تظهر بالطريقة ذاتها العلاقة بين اللغة والكلام، بين النظام والخطاب، بين البنية العميقة والبنية السطحية.

والعلاقة المعنية هنا، والتي هي علاقة الجملة الفعلية والجملة المتعدية خصوصا، هي أحد العلاقات ألأكثر " عمقا" و " قدما" في الفكر واللغة. كما أنها إحدى العلاقات الموغلة في البساطة. فهي تتكون من ثلاثة حدود (فاعل وفعل ومفعول) يحدد كل منها اختيار الحدين الآخرين : **فالرماح** [جندي قديم يتسلح بالرمح] مثلا كحد يستلزم حد **الرمح** الذي يستلزم بدوره حد **الجرح**. كما يستلزم حد **الناي** حدي **الموسيقى** و**الرقص**.وحد **السهم** يستلزم حدي **النبال** [رامي السهام] و**الهدف**...الخ.

-1

J' ai joué , je ne sais plus ou
Sur un billard d'étrange sorte
Les billes restent à la porte
.Et la queue entre dans le trou